الأستاذ: قوراري السعيد

المستوى: أولى ليسانس (جذع مشترك).

المادة: النص الأدبي القديم (شعر). تطبيق

المجموعة: الثانية (الأفواج: 5-6-7-8)

الدرس التطبيقي :02

الأغراض الشعرية في مقطعات الجاهليين .

أغراضُ المُقَطَّعات في أشعار الجاهليّين:

يرى النّاظر فيما وصل إلينا من مقطّعات الْجاهليّين أنها تكادُ تتعرّض لمعظم أغراض الشّعر المعروفة، من حماسةٍ وفخر، ورثاء وتَحَسُّرٍ وتفجّع، وهجاءٍ ووَعِيد، ومدح واعتذار، وغَزَلٍ، ووَصفٍ، وحكمةٍ واعتبار؛ وقد مرَّت شواهدُ على الحماسة في شعر هند بنةِ بيّاضة الإياديّة، والتّحسُّر و التّفجُّع مع الفخر في شعر جَذِيمةَ الأبرش، والغزل في شعر حَزِيمةَ بن نَهْد.

ومِنَ الحكمة المرافقة للنّصيحة قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التّميميّ في رسالةٍ شعريّة:

أيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ يَزيدَ بْنَ عبدِ اللهِ ما أَنا قائِلُ
بآيةِ أنّي لَمْ أَخُنْكَ وأنّهُ سِوى الحقّ مهما يَنْطِقِ النّاسُ باطِلُ
فقَوْمُكَ لا تَجْهَلْ علَيْهِمْ ولا تَكُنْ لَهُمْ هَرِشًا تَغْتابُهُمْ وتُقاتِلُ

وما يَنْهَضُ البازِي بغَيْرِ جَناحِهِ ولا يَحْمِلُ الماشِينَ إلاّ الحَوامِلُ
ولا سابقٌ إلاّ بِساقٍ سَلِيمَةٍ ولا باطشٌ ما لم تُعِنْهُ الأنامِلُ
إذا أنتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ والخَنَا أَصَبْتَ حَلِيمًا أو أَصابَكَ جاهِلُ

وهذه مقطّعةٌ قالَها شاعرٌ حكيمٌ ذو عقلٍ رزينٍ ورَوِيَّةٍ في حياتِهِ وشعرِه، فجاءت مقطَّعةً مُحْكَمَةَ الصُّنْع، بعث بها إلى (يزيدَ (مُمَهِّدًا في بدايتها بأنّه ناصحٌ غيرُ غاشٍّ ولا يقول لَهُ غيرَ الحقّ، ثمّ نَصَحَه بأنْ يحرصَ على قومِهِ بالبُعدِ عن إيذائهم أو جَرِّ الشَّرِّ إليهم، فإنّهم له كالجناحَيْنِ للطّائر، والأقدامِ للماشي، والسّاق السَّليمةِ للمُسابِق، واليدِ للضّارب، وختَمَها ببيتٍ من الحكمة يُذكّره فيها بأنّ الإقدام على الطَّيْشِ والنَّزَقِ يُؤَدّي بصاحبِه إلى أن يُؤذيَ حليمًا لا يستحقُّ الإيذاء، أو أَنْ يَرُدَّ عليه جاهلٌ بِطَيْشٍ كطَيْشِه ونَزَقٍ كنَزَقِه.

ومن المقطّعات الّتي احتوت على هجاءٍ ووَعِيدٍ قولُ زُهَيْرِ بن أبي سلمى المُزَنيّ، وقد أغار الحارثُ بنُ ورقاءَ الصَّيْداويُّ على قومِهِ فأخذ إبلَهُ وراعيَهُ (يسارًا)، وبلَغَهُ أنَّ بعضَ قومِ الحارث طلبوا إليه أن يَقْتُلَ الرَّاعيَ فأبى، فقال زهيرٌ:

أَبْلِغْ بَنِي نَوْفَلٍ عنّي، فقَدْ بلَغُوا مِنّي الحَفِيظَةَ لَمّا جاءَنِي الخَبَرُ
القائلينَ: يَسارًا، لا تُنَاظِرُهُ، غِشًّا لِسَيِّدِهِمْ في الأَمْرِ إذ أَمَرُوا
إنَّ ابْنَ وَرْقاءَ لا تُخْشَى غَوائِلُهُ لَكِنْ وَقائعُهُ في الحربِ تُنْتَظَرُ
لولا ابنُ وَرْقاءَ والْمَجْدُ التِّلِيدُ لَهُ كانوا قليلًا، فما عَزُّوا وما كَثُرُوا
والْمَجْدُ في غَيْرِهِمْ لولا مَآثِرُهُ وصَبْرُهُ نَفْسَهُ والْحَرْبُ تَسْتَعِرُ
أَوْلَى لَهُمْ ثُمَّ أَوْلَى أَنْ تُصِيبَهُمُ مِنّي بَواقِرُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ
وأَنْ تَعَلَّلَ رُكْبانُ المَطِيِّ بِهِمْ بِكُلِّ قافِيَةٍ شَنْعاءَ تُشْتَهَرُ

وزُهَيْرٌ تلميذُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ، ومِن ثَمّ نَلْحَظُ في الأبيات براعتَهُ في النَّيْلِ مِنْ بَنِي نَوْفَلٍ وتَخْلِيصِ الحارثِ بنِ ورقاءَ والثناءِ عليهِ معَ أنَّ القومَ قومُه؛ وهذا ليسَ ببعيدٍ مِن شاعرٍ معروفٍ بتَحْكِيكِ شِعره وتنقيحه وتجويده، فلا شكَّ في أنّ ذلك سيتسَرّب إلى أشعارِه الّتي يقولها على عَجَلٍ، كهذه القطعة الّتي لم يكن الوقتُ يسمح له بتحكيكها وتنقيحها، فقد جاءَتْ مُحْكَمَةً إلاّ في بعض عباراتها، كالبيت الثّاني، إذ قدّمَ (يسارًا) ونصبه بفعلٍ محذوفٍ، وجاء بصيغةِ النّفْيِ وهو يريد النَّهْيَ، ثمّ جاء بعبارة (إذ أمَروا) تَتْمِيمًا للوزن والقافية، وكذلك قوله في البيت الرّابع (وما كَثُروا) جاءَ تتميمًا للوزن والقافية.

ويَحْسُنُ أن يُخْتَمَ الحديث عن منهج المقطّعات بالإشارة إلى بعض الأمور المتعلّقة بها:

وأوّلُ أمرٍ يَلْفِتُ الانتباه هو أنّ هذه المقطّعات جاءت مُحْكَمَةً كاملةَ الصّياغةِ في لغتها وتراكيبها وأوزانها وسائر مقوّمات الشّعرِ الْجاهليّ.

والأمر الثّاني هو أنّ المقطّعةَ تكون متلاحمةَ الأجزاء مترابطةَ الأبيات، وذلك لِوَحْدةِ الموقف المحرّض على القول، والهدفِ الّذي يقصد إليه الشّاعر.

والأمر الثّالث أنّ المقطّعة تُخَصَّص في العادة لغَرَضٍ واحدٍ، وهذا يعني أنّها ابنةُ موقفٍ واحدٍ مِن مواقفِ الحياة الّتي يمرُّ بها الشّاعر، لا يسمح لَهُ بإطالةِ القول، فيأتي شعره قصيرًا، معبّرًا عن ذلك الموقفِ وَحدَه؛ ويؤكد ذلك أنّ كثيرًا من المقطّعات كانت رسائلَ شعريَّةً يبدؤُها الشّاعر بعبارةٍ مثلِ (أيا راكبًا إمّا عرضتَ فبلّغَنْ ...) أو (فأبلغْ إنْ عَرَضْتَ ...) أو (أبلغ بني فلان ...) أو نحو ذلك من العبارات الّتي تبدأ بها الرّسائل الشّعريّة.

والأمر الرّابع هو أنّ القيمة الفنّيّة للمقطّعات تتفاوت بين شاعر وآخَر، فالشّعراء الفحول كأوسِ بنِ حَجَرٍ و زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمَى والنّابغةِ وامرئِ القَيْسِ تكون مقطّعاتُهم أجوَدَ مِن مقطّعات مَنْ هُمْ دونَهُم من الشّعراءِ.

والأمر الخامس أنّ مَثَلَ المقطّعة والقصيدة في الشّعر كَمَثَلِ الأُقصوصَة والقصّة في النّثر؛ إذ تبتعِدُ الأُقْصُوصةُ عن التّفصيل في الوصف والحوار ونحو ذلك من وسائل البناء
الفنّيّ الّتي يَحْرِصُ عليها القاصُّ في الثّانية.

****

الآراء الستة حول نشأة الشعر وعلاقة ذلك بالمقطعات: ذهب دارسو تاريخ الشّعر إلى أنَّ نشأتَهُ كانت لأسبابٍ أوصلت الإنسانَ إلى هذا الفنّ، واختلفت مذاهبُهم في تحديد هذه الأسباب:

1-فمنهم مَنْ قالَ: إنَّ الإنسان الأوَّلَ كانَ يسكُنُ الكهوفَ ولا يعرفُ زراعةً ولا رَعْياً، فكانت حياتُه قائمةً على الصَّيْد وجَنْيِ الثّمار، فإذا ما عادَ الأبُ مِنْ رحلتِهِ خاليَ الوِفاضِ عَمَّهُمُ الغَمُّ والحُزْن، فعبّروا عن فرحهِم أو حزنهِم بطرائقَ مختلفةٍ مِنَ الأصواتِ والحركاتِ، وتطوّرت إلى أن صارت رقصاً وغناءً بعباراتٍ متوازنةٍ، ثم صارَتْ العباراتُ موزونَةً على شكلِ مقطّعاتٍ، ثمَّ تطوّرت المقطّعات إلى أن صارت قصائدَ طويلة.

2- ومنهم مَنْ قالَ: إنَّ الإنسانَ الأوّلَ كانَ يَسْمَعُ حفيفَ الشَّجَرِ وخريرَ الماءِ وصفيرَ الرّيح وتغريد الطَّيْرِ ودَويّ الرَّعد، وهي أصواتٌ ذاتُ إيقاعاتٍ، فجعل يقلّدها ويُحاكيها بكلامِهِ، وتطوَّر ذلكَ التّقليدُ إلى كلامٍ متناسقٍ متوازنٍ، فصاغَ بيتاً مِنَ الشِّعر، ثمّ صاغَ آخَرَ، وهكذا حتّى استطاعَ صياغةَ مقطوعةٍ شعريَّة، فقصيدة .

3- ومنهم مَنْ رأى أنَّ الإنسانَ العربيَّ كانَ إذا ما انطلَقَ وَحيداً في الصَّحراءِ، وتَداعَتْ أفكارُه وجاشَت إليه نفسُهُ وخواطِرُه فَرَقاً مِنْ وَحْدَتِهِ ومِن الوحوشِ، جعلَ يحدّث نفسَه بصوتٍ مسموع، تَسْلِيَةً لها وتَطْميناً، وجعلَ يُرَدِّدُ ذلكَ الصَّوتَ ويكرّرُه ويترنّم به وينسُجُ على مِنوالِهِ، حتّى تشكّلت لديه أبياتٌ قليلة مِنَ الشّعرِ. ويَرَوْنَ أثَرَ ذلكَ في قولِ هند بنة بيّاضةَ بنِ رِياحِ بنِ طارقٍ الإياديّة :

وَعَى وعَى وعَى وعَى حَرَّ الْجَرَادُ والْتَظَى
وامتلأَتْ منهُ الرُّبَى يا حبّذا يا حبّذا
الملحفون بالضحى

4- ومنهم مَنْ رأى أنَّ الإنسانَ العربيَّ بَدَأَ باستحسانِ بعضِ العباراتِ المخالفةِ للكلام المألوف، ممّا كان يَجري على ألسنةِ بعضِ العربِ في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم وفي سَجْع الكُهَّانِ، وفي ذلك كلِّه عباراتٌ مُتوازنةٌ مسجوعةٌ؛ كقول عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ في مُنافَرَةِ عَلْقَمَةَ بنِ عُلاثَةَ: ((واللهِ! لأَنَا أَرْكَبُ مِنكَ في الحُماة، وأَقْتَلُ منكَ للكُمَاة، وخَيْرٌ منكَ للمَوْلَى والمَوْلاة))، فقالَ عَلْقَمَةُ))"واللهِ إنّي أَعَزُّ مِنْك؛ إنّي لَبَرٌّ وإنَّكَ لَفاجِر، وإنّي لَوَفِيٌّ وإنّكَ لَغادِر، فَفِيمَ تُفاخِرُني يا عامِر؟"، فقال عامر: "واللهِ إنّي لَأَنْزَلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَة، وأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ مِنْكَ لِلثُّغْرَة.((

5-ومنهم مَن رأى أنَّ الشِّعرَ العربيَّ ناشئٌ عَنْ فَنّ ترقيصِ الأطفال، إذ كان الرَّجُل أو المرأةُ منهم يحملُ الوَلَدَ ويُرَقِّصُه بأبياتٍ قليلة ليُفرحَهُ ويُدَاعِبَه.

6- ومنهم مَنْ رَدَّ نشأةَ الشِّعرِ العربيّ إلى الحُداءِ، وهُوَ الغِناءُ للإبلِ كي تَجِدَّ في سَيْرِها، وإلى الغناءِ في الأعمالِ الجماعيّة كحفرِ بئرٍ أو بناءِ بَيْت، وكانتِ البدايةُ بكلماتٍ ردَّدوها فكانت بدايةُ الحُداء، ثمّ المقطّعات الّتي تطوَّرَ عنها الشّعر.